

## واقع الثقافة العربية

د. محمد صابر عرب

كثيراً ما يتردد في أوساط النخبة الثقافية في العالم العربي بأن الثقافة العربية في أزمة حقيقية ويستشهدون بأشياء كثيرة من قبيل تدهور اللغة العربية باعتبارها الوعاء الحقيقي الحاضن للهوية وهذه حقيقة لا تخفى على أحد، لكن ثمة قضايا أخرى أكثر اتساعاً ولعلها أخطر من مجرد اللغة، ومن بينها حالة التدهور الملحوظ في الفكر الاجتماعي والسياسي، يضاعف من خطورتها تدهور مستوى التعليم في العالم العربي وشيوع خطاب الخرافة في الفضائيات العربية لدرجة محزنة، والمتابع للخطاب الإعلامي يشعر بهذه المأساة، حيث غاب العقل وشاعت ثقافة تقديس النص على حساب العقل.

العلاقة بين الإعلام وبين الثقافة وثيقة الصلة بتقديم المجتمع أو تخلفه، ونحن أحوج ما نكون إلى رصد ما يقدم في الفضائيات وتحليل مضمونه وتأثير هذا الخطاب على المجتمعات العربية وغياب قضايا المرأة ومؤسسات المجتمع المدني... إلخ.

لم تعد الثقافة مجرد العناية بالشعر والأدب... إلخ، بل أصبحت الثقافة هي مفردات الحياة بمعناها الشامل لغة وأدبا وسياسة وتنمية وسلوكًا، وهي معاني غابت عن واقعنا العربي المعاصر، سواء في التعليم أو الإعلام، ولا وجود لها في برامج وسياسات الحكومات العربية التي يعني بعضها أحيانًا بالقضية من خلال محاولة تجميل الصورة عبر خطب وبيانات لا تستند إلى الواقع الفعلي.

إذا كانت الحكومات العربية تتحمل مسنولية غياب الرؤية وفق برنامج ثقافي متكامل من خلال التعليم والأعلام وشيوع الحرية. لكن الجماعة الثقافية تتحمل هي الأخرى مسنولية كبيرة وخطيرة، فلقد انحسر دورها ما بين جماعة انكفأت على نفسها ورضيت بالانسحاب والاستسلام وهي في مجملها يائسة، متشائمة، بينما جماعة أخرى اكتفت بمشاريعها الخاصة ووفقت أوضاعها وفق مبدأ المصلحة ووجدت ضالتها في الارتباط بالأنظمة وقد راحت تغترف من خيراتها ما بين جوائز ومصالح خاصة ولا تجد غضاضة من أن تبرر مواقفها التوفيقية بطريقتها الخاصة.

نحن أحوج ما نكون إلى جماعة أخرى لا تقبل الانسحاب أو التراجع ولا تلقي بنفسها في أحضان السلطة، جماعة جديدة تكون قادرة على الاقتراب من السلطة ومحاورتها والإلحاح في طرح برامجها ورؤاها لكي تتمكن من إقناعها بضرورة تغيير الثقافة النمطية الضيقة لصالح ثقافة الديمقراطية التي تحقق الحرية والحوار السلمي في سبيل شيوع ثقافة العقل وتعظيم دور المجتمع المدني.

كل المجتمعات التي قطعت شوطاً كبيراً في التنمية والتقدم كان سبيلها في ذلك شيوع الحرية بمعناها الواسع من خلال تشريعات وبرامج عظمت من سلطة العقل على حساب النص ووفرت كل الضمانات في سبيل أن يفكر الجميع دون قيود على حرياتهم أو فكرهم.

لم يحدث ذلك في العالم لمجرد أن الأنظمة قد ارتضت ذلك بنفسها وإنما وجدت في مقابلها مفكرون ومنظرون اختاروا أن يواصلوا نضالاتهم حتى لو دفع بعضهم ثمن اختياراته، لكي تحسم المعركة في النهاية لصالح الحرية التي ضمنت للجميع حياة حرة كريمة بعيداً عن فكر الخرافة وسلطة الدين أيّاً كان هذا الدين.

اللافت للنظر أن ثقافتنا في تراجع لسبب واضح لدى الجميع، يضاعف من تراجعها هذه الفضائيات الهائلة؛ التي حشدت برامج وأشخاص راحوا يستنطقون نصوصاً من التراث أقامت خصومة مع الحياة وضاعفت من تدهور العقل وشيوع فكر الخرافة، بل إن حكومات عربية ومؤسسات رسمية في كثير من أقطارنا العربية ساندت هذا الاتجاه، لدرجة أنها فوجئت دون أن تدري بأن ما حشدته من فكر قد ارتد عليها سهاماً وحراباً قاتلة، ورغم ذلك فلم تستوعب الدرس بعد.

إن ما يحدث في العالم الآن من كراهية للعرب والمسلمين هو نتاج طبيعي لهذه السياسات التي أنتجت هذا الفكر المتشدد الذي ألحق ضرراً هائلاً بعقيدتنا وبتقافتنا وبقضايانا السياسية، ولا أعتقد أننا سنحظى بدعم دولي لقضايانا الوطنية والقومية -وفي مقدمتها قضية فلسطين التاريخية- في ظل شيوع هذا الفكر المعادي لروح العقل ومصالح الإنسان أيّاً كان هذا الإنسان أو عقيدته.

المتابع للمشهد الإعلامي العربي عبر الفضائيات يلحظ خطاباً فجاً يبدو أنه لم يستوعب الدرس بعد، ولم يتعرف على حقيقة الأزمة، ولا ينم عن وعي حقيقي لا بالتاريخ ولا بالواقع، ولا حتى بصحيح الدين، ولا يستشرف المستقبل الذي يبدو قاتماً لدرجة يائسة. أليس من المناسب - والخطر يدهمنا من كل جانب - أن يجتمع السياسيون وقادة الفكر لكي يتدارسوا هذه المأساة لعنا نستطيع أن ننفذ ما يمكن إنقاذه. قد يكون من المناسب أن تتبنى الجامعة العربية هذه القضية من خلال حوار حر وشفاف يشارك فيه المثقفون الحقيقيون مع صناع السياسة، لكي نخرج ببرنامج يحول دون مزيد من التدهور الذي ينبئ بمستقبل قاتم ومظلم.

د. محمد صابر عرب

Email: [chairman@darelkotob.gov.eg](mailto:chairman@darelkotob.gov.eg)